يحيى بولحية*

أصول التحديث في اليابان ١٥٦٨-١٨٦٨

الكتاب	:	أصول التحديث في اليابان (١٥٦٨-١٨٦٨)
الكاتب	:	محمد أعفيف
مكان النشر	:	بيروت
الناشر	:	مركز دراسات الوحدة العربية
تاريخ النشر	:	٢٠١٠
عدد الصفحات	:	٥٧٤

الكتاب عبارة عن أطروحة أنجزها المؤلف الأكاديمي المغربي محمد أعفيف** سنة ٢٠٠٥، وترأس مناقشتها الأستاذ عبد الله العروي. وبالنظر إلى أهمية الكتاب وجِدة الموضوعات المُثارة فيه على مستوى الدراسات العربية، فإن عرض تفصيلاته ومناقشة إشكاليته وموضوعاته يظلان محدودين، ومن ذلك ملخص قدمه أعفيف نفسه في مجلة **المستقبل العربي**، العدد ٣٨٠ (٢٠١٠)، كما كتب عنه في المجلة نفسها، العدد ٣٨٦، أستاذ العلوم السياسية في جامعة القاهرة عبد الغفار رشاد القصبي. من جانب آخر، نشرت جريدة **الشرق الأوسط** في ٢٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٠ مقالة محدودة عن الكتاب بقلم سعيد بنسعيد العلوي، تحت عنوان «نحن واليابان».

* إطار إداري، أكاديمية وجدة للتربية والتكوين.

** يعمل محمد أعفيف أستاذًا للتاريخ الحديث والمعاصر في جامعة محمد الخامس بالرباط. حاصل على دكتوراه الدولة في التاريخ من الجامعة نفسها وماستر الفلسفة في الأنثروبولوجيا من جامعة نيويورك. مختص بتاريخ الشرق الأقصى والمغرب المعاصر وبالترجمة.

استهدفت أطروحة أعفيف «البحثَ في الأسباب البعيدة والقريبة التي هيأت اليابانيين، في نهاية القرن التاسع عشر، للانخراط في حركة تحديثٍ عجز غيرُهم عن الدخول فيها أو تحقيق المرتجى منها»[1]؛ فقد سبق لأعلام عرب أن كتبوا في الموضوع الياباني، ومن أبرزهم مسعود ضاهر وشارل عيساوي وعلي المجذوبي وغيرهم، إلا أن مقاربة أعفيف تتميز بالعمق والتوزيع الجيد لمحاور الدراسة.

عرَّف أعفيف القارئَ العربي بأصول اليابان الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والفنية والتعليمية خلال عهد التوكوجاوا. وبالنظر إلى أهمية الدراسة وجدّتها على المستوى العربي، حري بالمثقفين الالتفات إليها ونقدها، ذلك أن النقد مقدمة أساسية لتطوير الأبحاث والوصول بها إلى الغايات العلمية المحمودة.

ضمن هذا السياق، نقدم دراسة نقدية للكتاب بعرض تفصيلاته على مستويي الشكل والمضمون، مع مناقشة أهم الأفكار الواردة فيه، ومنها الإشكالية المركزية للبحث والاستنتاجات التي أوردها الباحث في مصنّفه.

محاور الكتاب: أصول التحديث في اليابان ١٥٦٨–١٨٦٨

قسم المؤلف كتابه إلى:

فصل تمهيدي أورد من خلاله طبيعة المجال والإنسان والمسار التاريخي.

القسم الأول تناول فيه المجتمع والسلطة خلال عصر التوكوجاوا، وانقسم بدوره إلى سبعة فصول تناولت الأنظمة والمعتقدات الدينية وعلاقتها بالتراتب الاجتماعي. كما تطرق إلى الفئات المجتمعية التي تألف منها نظام التوكوجاوا بدءًا بنبلاء البلاط وانتهاء بفئة المنبوذين. من جانب آخر، ركز الفصل الرابع على مؤسسة الشوجون وأسرة التوكوجاوا من خلال أدوارها السياسية والعسكرية والمالية والدينية، وما قامت به من إصلاحات عمّقت من الطبيعة البيروقراطية والقهرية التي اتسم بها نظام الباكوفو.

من جانب آخر، خصص أعفيف فصلًا لمؤسسة الإمبراطور، محللًا أسس مشروعيتها الأسطورية والوظائف التي اضطلعت بها، وكذا العلاقة التي ربطتها بمؤسسة الشوجون.

وتناول في الفصل السابع أبرز قرار اتخذه حكام التوكوجاوا ممثّلًا في سياسة العزلة الطوعية التي دامت قرنين ونصف قرن، وسمحت بضبط مفردات الداخل المعارض من فئات الدايميو، وحققت قيمة تراكمية مهمة أهّلت اليابان للانخراط في عملية التحديث خلال عهد الميجي.

القسم الثاني، وتناول فيه بوادر التحديث خلال عهد التوكوجاوا، وذلك من ثنايا التحول الديموغرافي والنمو الاقتصادي، واتساع التمدن والمواصلات، وتحولات المشهد التعليمي والمعرفة ببعض ملامح الثقافة الغربية، ودور التوسع الإمبريالي الغربي في منطقة الشرق الأقصى في تزايد الاهتمام بالعلوم الغربية.

من جانب آخر، أفرد أعفيف فصلًا خاصًا بالكتاب والطباعة، وأثر الثقافة الصينية في تطور هذه الصناعة، كما خصص فصلًا آخر لما يسمّى ثقافة التشونين، أو العالم العائم، متناولًا ثقافة الغايشا وأحياء المتعة وألوان المسرح.

وبمنهج استقرائي ختم أعفيف القسم الثاني بفصل خص به البدايات الأولى للتهديد الغربي للمنطقة، وهو التهديد الذي أسفر عن خرق الكومودور بيري الأميركي للنرجسية اليابانية ولسياسة السوكوكو(العزلة)، وما أعقبها من اتفاقيات اعتبرها اليابانيون مجحفة؛ إثر ذلك نشأ خلاف داخلي محموم بين حكام التوكوجاوا ورؤساء المقاطعات المعارضة نتجت منه ردود

أفعال حاولت الرد على التحديات الغربية، ومنها تبنّي بعض الإصلاحات، كإرسال بعثات تعليمية إلى أوروبا وأميركا.

نجح المؤلف في تفكيك الموضوع والسيطرة على محاوره، مقدِّمًا معلومات مفيدة تمكّن القارئ من معرفة تفصيلات تاريخ اليابان خلال الفترة موضوع الدراسة.

إشكالية البحث

يناقش الكاتب من خلال كتابه مسألة التقدم والتأخر؛ فقد أراد القول إن تفوّق اليابان وتقدمها التنموي يكمنان في عمقها التاريخي، وإن ثورة الميجي سنة ١٨٦٨ ليست، في نظره، سوى تتويج لمرحلة طويلة من التراكم التحديثي، وإن اليابان «مر بسيرورة دامت قرونًا قبل أن تتبلور في صورة إصلاحات تبدو أول وهلة (قفزة) نوعية في تاريخ اليابان» (ص ٥٣٥)، وهو العمل نفسه الذي قامت به دراسات أكاديمية حاولت تأكيد أن أوروبا الحالية ليست سوى محصلة لتحولات بنيوية عميقة تمتد إلى فترة العصر الوسيط، ومنها دراسة متميزة لجاك لوكوف، وهي بعنوان ما ترجمته «هل نشأت أوروبا خلال العصر الوسيط؟»[٢]

بذل المؤلف جهده في بناء أطروحة أكاديمية تؤكد أن جذور التحديث الياباني تمتد إلى فترة حددها في ما بين سنتي ١٥٦٨ و١٨٦٨، وهو قول ليس بالجديد، إذ تناوله كثير من الباحثين الغربيين واليابانيين، ومنهم بيير رونوفان وكوهاشيرو تاكاهاشي (وهما مؤلفان يصعب الاستغناء عنهما في دراسة تاريخ اليابان في الفترة التي تناولها أعفيف، ويعدَّان أكبر غائبين عن لائحة مراجع أطروحته)، إضافة إلى أدوين رايشاور (**اليابانيون**) وباتريك سميث (**اليابان**) وغيرهما من المؤرخين الإنكليز والألمان والفرنسيين.

نهاية عهد التوكوجاوا ومخاض الانتقال

الحلقة المفقودة من البحث

ختم المؤلف بحثَه من دون فحص مخاض الانتقال الذي أعقب توقيع التوكوجاوا الاتفاقيات المتكافئة مع الولايات المتحدة وبعض البلدان الغربية؛ ويبدو أنه استعجل إتمام موضوعه من دون إخراجه من عنق الزجاجة، علمًا بأن المرحلة الانتقالية شهدت مخاضًا عسيرًا تحدث عنه فوكوزاوا يوكيتشي (يوجد ضمن لائحة المراجع التي اعتمدها أعفيف)، كما شهدت اليابان ثورة مضادة قادها أحد أبرز من أطاحوا نظام التوكوجاوا، وهو صايغو تاكاموري من مقاطعة ساتسوما. كما أن الفترة الفاصلة بين حملة بيري ١٨٥٣–١٨٥٤ وقيام عهد الميجي سنة ١٨٦٨ شهدت سباقًا محمومًا بين نظام الباكوفو والمقاطعات المعارضة (تشوشو وهيزن وساتسوما وتوزا) في إرسال الوفود التعليمية إلى أوروبا الغربية لتكوين الأطر والكفاءات المحلية، وحسم المعركة الداخلية بمعيار الكفاءة العسكرية والسياسية والعلمية، وهو موضوع نشير إليه في حينه.

الانتقال في اليابان

دلت المراحل الأولى، التي رافقت الوجود الأميركي داخل الشواطئ اليابانية، على فوضى الفكر وعدم القدرة على التقاط الخيط الناظم لمقدمات الهجمة الغربية. وفي إثر ذلك، طرأ نوع من «التعقل» في مساءلة الواقع الجديد المفروض. وفي سنة ١٨٦٤، حدث منعطف استراتيجي مهم؛ فقبل هذا التاريخ «كانت الحركة الإمبراطورية تسير بشكل موازٍ مع حركة العداء للأجانب، لكن بعد ذلك حدث الانفصال بينهما»[٣]. وهي أحداث لم يعرها المؤلف كبير اهتمام، ويمكن من ثناياها قراءة فكر

النخبة اليابانية وطريقة إدارتها للمرحلة الانتقالية في إطار الصراع مع نظام التوكوجاوا الذي استنفد أغراضه التاريخية والسياسية.

وبرؤية مقارِنة، قدم كلٌّ من كوهاشيرو تاكاهاشي وبيير رونوفان رؤية متميزة في التحولات التي شهدتها الفيودالية اليابانية؛ وحللا طبيعة المشكلات الداخلية التي عرفها عهد التوكوجاوا على مستوى العلاقات الداخلية.

يثير كتاب **مسألة الشرق الأقصى** لبيير رونوفان موضوعَ التحديث الياباني من زوايا نظر مختلفة، وقد تناوله في سياق التاريخ العام المتعلق بمجموع دول الشرق الأقصى (الصين واليابان وكوريا ...) وعلاقته بموضوع التوسع الأوروبي، وقدّم بخصوصه قراءة تحليلية متماسكة ومتناغمة، واعتمد في مقاربة الموضوع على دراسة بنية المجتمع الفيودالي الياباني خلال عهد التوكوجاوا، وحجم التراكمات الإيجابية التي حققها. وقد حاول على امتداد مباحثه المتعلقة باليابان الدفاع عن ثنائية العوامل الداخلية والخارجية في بناء يابان الميجي. ونوه بكتاب بيير رونوفان الباحثُ الياباني كوهاشيرو تاكاهاشي، ضمن دراسة له بعنوان: «موقع ثورة الميجي في التاريخ الريفي لليابان»[٤].

قدّم كوهاشيرو موضوعًا تحليليًا دقيقًا لبنية النظام الفيودالي الياباني وتحولاته منذ بداية عهد التوكوجاوا، وحاول رصد دور العلاقات الفيودالية وتحولاتها كقاعدة مادية في إنتاج بناء فوقي بلغ أوجه من خلال بداية تفسخ العلاقات الإنتاجية وبروز حركة سياسية وإدارية جديدة مثّلتها، في نظره، ثورة الميجي. وفي بداية دراسته حاول المقارنة بين نمط الإنتاج الفيودالي بأوروبا الغربية (فرنسا بالخصوص) ومثيله الياباني، كما أبرز أوجه الاختلاف بين ثورة الميجي والثورة الفرنسية ١٧٨٩، مشيرًا في أعقاب ذلك إلى دراسات مارك بلوك ولوسيان لوفيفر وغيرهما.

ويبدو أن كوهاشيرو وجد بعض الصعوبات في تطبيق المنهج المادي التاريخي على سيرورة التحول السياسي في اليابان، وأشار في بداية دراسته ونهايتها إلى كتاب بيير رونوفان السالف الذكر الذي اعتبر ثورةَ الميجي حدثًا تركيبيًا لكلٍّ من العوامل الداخلية والخارجية. وعلى الرغم من أهمية كتاب رونوفان ودراسة كوهاشيرو العلمية الكبيرة، فإننا لا نجد لهما أثرًا ضمن لائحة البيبلوغرافيا التي اعتمدها أعفيف في أطروحته.

كما اعتمد الباحثُ بول أكاماتسو ضمن مصادر بحثه مؤلفَ رونوفان السالف، وتناولَ في كتاب له التناقضات التي أعقبت ثورة الميجي، وحمل عنوانُه، **الميجي ١٨٦٨ : الثورة والثورة المضادة**[٥]، الكثير من الدلالات التاريخية، وقسَّم دراسته إلى جزأين كبيرين، ابتدأ الأول منهما بعنوان: تراجع سلطة الشوجون، والثاني بعنوان مكمّل: تغيير النظام. وتحدث فيه عن طبيعة التحولات السياسية والإدارية التي عرفها نظام الإيدو بعد حملة بيري وتوقيع الشوجون اتفاقيات غير متكافئة مع الغربيين، كما حلل دور المقاطعات المعارضة (ساتسوما وشوتشو..) في إطاحة نظام التوكوجاوا وإعادة السلطة إلى الإمبراطور، والانتصار لاختيار الدولة اليابانية المركزية. كما ختم بحثه بتعريف بعض المصطلحات والأعلام الذين أدوا أدوارًا أساسية في عملية التحول السياسي والإداري ليابان الميجي.

في السياق نفسه تطرق أعفيف إلى شخصيات وازنة في المشهد السياسي الجديد في اليابان، ومن أبرزها إيتو هيروبومي؛ لكن لم يتم التعريف الكافي به وبغيره من قادة التغيير الذين ساهموا في إطاحة نظام التوكوجاوا (علمًا أن إيتو كان أبرز أعضاء مؤسسة الجنرو).

كانت للنخبة المثقفة مساهمتها في ولادة العهد الجديد، ومن أبرز رموزها إيتو هيروبومي؛

فقد تعرف هذا الأخير، مثل غيره من المثقفين اليابانيين، على الغرب قبل عهد الميجي؛ وبعد قيام العهد المستنير وفي إثر رحلة دراسية إلى الغرب امتدت سنة ونصف سنة (١٨٨٢–١٨٨٣)، نجح هيروبومي مع فريق مهم من المتعلمين اليابانيين في الخارج وبعض الخبراء الأوروبيين، في وضع مقدمات مشروع دستور ياباني، و«أصبح رئيسًا للوزراء ١٨٦٨ وعمره لا يتجاوز ٢٨ سنة»[٦].

ومثله كان موري أرينوري، أول وزير للتعليم، وكيدو تاكايوشي، ومختلف النخب التي هندست للعهد الجديد.

الذاتي والموضوعي في نجاح التحديث الياباني

تثير إشكالية الداخل والخارج الكثير من التساؤلات. وضمن هذا المفهوم، حاول أعفيف القول إن التحديث صناعة يابانية تأسست على تحولات عميقة في تاريخ اليابان من النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية والإدارية والعسكرية... في حين لم يحتل العامل الموضوعي في دراسته، حيزه المناسب ضمن التحول العام الذي عرفته اليابان خلال فترة الميجي (١٨٦٨–١٩١٢)، وهي مسألة لا تخص تاريخ التحديث في اليابان وإنما التاريخ العام، حيث أثيرت أسئلة تتعلق مثلًا بطبيعة الانتقال من الفيودالية إلى الرأسمالية في أوروبا، ونشأت اجتهادات تنتمي إلى مدارس فكرية وفلسفية شتى (المادية التاريخية مثلًا) حاولت القول إن أزمة النظام الفيودالي واستنفاد أغراضه التاريخية حتّما ضرورة الانتقال إلى نقيضه الموضوعي (النظام الرأسمالي)، ملغية دور الخارج في مد الأوروبيين بمتنفسات مادية وفكرية عجّلت بطور التحول إلى النظام البرجوازي.

أما ماكس فيبر، فيولي في كتابه **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية** أهمية كبيرة للمعتقدات الدينية والقيم في نشأة النظام الاقتصادي الرأسمالي وتطوره، مختلفًا بذلك عن الفهم الماركسي للشروط المادية لتحقق التحولات التاريخية الكبرى. وقد قال إن «مثلث أو شرارة الانبعاث تكمن في: روح المبادرة، وتقديس العمل، واعتماد مبدأ الربح... ولم يكن الغرب، حسب وجهة نظره، لينهض لو أن البابا والكنيسة الكاثوليكية بقيمها المعاكسة بقيت تمسك بتلابيب أوروبا؛ من تقديس الزهد والفقر، والتواكل في عقيدة فاسدة لفهم العمل الإلهي والبشري، والنظر إلى الربح على أنه عمل غير صالح»[٧].

يؤكد رونوفان أن عملية التحول في اليابان تمت في زمن قياسي وفريد في تاريخ التحولات العالمية، «فلم تمر فترة ٢٥ سنة حتى تم تحديث المؤسسات» –ويضيف قائلًا– : «دون الحضور الغربي، ونموذجهم التحديثي، ودون المساعدة التقنية الغربية، لم يكن قطعًا لتتحقق عملية التحول»[٨].

أسطورة الشمس وأهمية التحليل الأنثربولوجي

خصص أعفيف محورًا خاصًا تحدث فيه عن المؤسسة الإمبراطورية، كما أورد أسطورة الشمس (أماتيراسو)، وكان الأولى أن يوظف المقاربة الأنثروبولوجية لتحليل النسق العام الذي يحكمها، علمًا أن قادة الميجي وظفوا مضمونها في إرجاع السلطة للإمبراطور وفي منحه سلطات واسعة خلال صوغ الدستور الجديد/ الأول على منوال النموذج الدستوري البروسي/ الألماني.

تحمل الأسطورة اليابانية الكثير من المعاني والدلالات، ومن أبرزها ارتباط الفوضى بمسألة الإخلال بالواجب، حيث تسبب إهمال سوزانو (أخي أماتيراسو) واجباته في حدوث عدد كبير من الكوارث على الأرض؛ وهذا إشارة تفسر الدينامية التي ميزت المجتمع الياباني منذ فترات

تاريخيـة قديمة، وتُـبرز القيمة الأسـطورية للعمل الجـاد والمثمر. كـما أن النعمة – الضـوء والدفء– تسـتوجب الشـكر بـأداء المهـمات عـلى أحسـن وجه، وهو ما يسـتدعي إصلاح الأخطـاء الفردية ببـذل الجهـد الجماعـي، واسـتعمال الحيـل والخدع لإصلاحهـا؛ وهي صورة معبّرة عن فكرة الجماعية وازدواجيـة الخطـاب ودورهمـا في صـوغ المجتمع الياباني الحديث.

جسدت الأسطورة اليابانية حقيقة الذهنية اليابانية؛ فالانكفـاء عـلى الـذات وممارسـة العزلـة داخـل الكهـف سـمتان بنيويتان، نلاحظ بعـض تجلياتهما في ممارسـة سياسـة السـوكوكو (العزلـة) الطوعية التـي عاشـتها اليابان ٢٥٠ سـنة؛ كـما أن الخروج من حالة النرجسـية إلى التواصل مع أطراف العالم، يصاحبه الإشـعاع، والاعتزاز بالدور العالمي الذي يتناسـب مع المهمة المقدسـة الملقاة على كاهل أبناء أماتيراسـو. ومن هنـا، يمكننـا فهم العسـكرتاريا ودورهـا في التوسـع الإمبريـالي اليابـاني إلى حدود الحـرب العالمية الثانية قبل أن يصبح توسـعًا تجاريًا وتقنيًا على المستوى العالمي.

كانـت إرادة الحكومـة، بـل الإمبراطـور، محـددة؛ فباسمه كانت تصدر القرارات، وتحت سلطته كان التـدرج في تطبيقها وتنزيلها على الواقع، وفي «ذاته المقدسـة» كانت تتقاطع التجاذبات السياسـية. ولم يصدر الدسـتور اليابـاني إلا بعد مـرور فترة مهمة على عهد ١٨٦٨. وأكد الدسـتور «أن الإمبراطور مقدس ولا يجوز المسـاس به، والإمبراطور سـليل السـماوات وهـو إلهـي مقـدس»[٩]. ولا شـك أن قادة العهد الجديد في اليابان اسـتلهموا الأسـطورة اليابانيـة لتحقيـق الإجمـاع الوطني حول شـخص الإمبراطور ومنحه سلطات مطلقة وواسعة.

الجماعية ودورها في مجتمع التوكوجاوا

تنـاول المؤلـف أسـس نظـام التوكوجـاوا، وحلل بنيته الاجتماعية والسياسية والإدارية والاقتصادية والفنيـة...، لكنـه لم يتنـاول بعمق مسـألة الجماعية ودورهـا في بنـاء الدولـة والمجتمـع، وهـو جانب تنبّهـت لـه مجموعـة مـن الدارسـين الغربيـين واليابانيـين. فالوحـدات الاجتماعيـة خـلال عهد التوكوجاوا لم تتأسـس، بحسـب رايشـاور، «على أسـاس القرابـة والنسـب، لكنها كانـت وحدات اجتماعيـة، تمثّل القرية الزراعية التي يشـترك أهلها في مصادر المياه..، ويتعاونون معًا في دفع الضرائب وحل المشاكل الإدارية الأخرى»[١٠].

وأورد ياسـومازا كـورودا، مـن جهتـه، ما يسـمّى جماعـة الرجـال الخمسـة التـي عرفهـا عـصر توكوجـاوا، وكـان أعضاؤها يشـتركون في «تحمّل كل التبعـات القانونيـة كوحدة قائمـة بذاتها داخل مجتمـع القريـة، وكانـت تلك الجماعة هـي الوحدة الإداريـة الأولى التي اسـتخدمها نظـام توكوجاوا للحفاظ على القانـون والنظام»[١١]، وهذا بالضبط ما ذكره أحـد الباحثين الكوريين؛ ففي نظره مثّلت مجموعـة الخمسـة أشـخاص، خلال عهـد الإيدو (١٦٠٣–١٦٦٨)، الخليـة الأساسـية لتنظيم حياة المواطنين في كلٍّ من القرى والمدن[١٢].

كتب الغربيون الكثير من الدراسات الأنثربولوجية الخاصة بالمجتمع الياباني، وتندر/ تنعدم المساهمات العربية في هـذا المجال، ويعَدّ كتاب **اليابان والوجه المزدوج** لـِكايكو ياما ناكا[١٣] دراسة رائدة تكشف عـن طبيعـة الشـخصية اليابانيـة، وكـان في إمكان توظيف هذا اللـون المنهجي أن يقدّم إضافة نوعية لبحث أعفيف.

«يمثّـل القنـاع Tatémaé، الموقـف الاجتماعـي الصحيـح والمقبول موضوعيًـا، أما الحقيقة honné،

فتحيل على المعتقدات الداخلية الحرة والعميقة»[١٤].

وعندما يعبّر اليابانيون عن موقفهم من قضية من القضايا، فإنهم يغيرونه تبعًا للظروف، ويتأرجح بين الالتزام بالمبدأ Tatémaé واتباع الحقيقة والتجلي honné. ولا شك أن هذه الازدواجية «تجنبهم الاصطدام غير المرغوب فيه مع العالم الخارجي»[١٥].

يُعتبر جواو رودريغز (J. Rodrigues) من أبرز الرواد الغربيين الذين عاشوا في اليابان؛ فقد جاء إليها سنة ١٥٧٦، واستقر فيها أكثر من ثلاثين سنة، وقام بدور المترجم للسيد الإقطاعي (الشوجون)، ولا شك أنه خبر الذهنية اليابانية جيدًا، واستنتج حكمًا يليق بطبيعة الإنسان الياباني، ومفاده «أن للإنسان الياباني ثلاثة قلوب: قلبًا زائفًا في فمه ليراه العالم كله، وقلبًا آخر بين ضلوعه لأصدقائه، وقلبًا ثالثًا في أعمق أعماقه، يدخره لنفسه فقط ولا يبوح بمكنوناته قط لأي مخلوق»[١٦].

وقد عبّر الأمير محمد علي باشا عن غموض الشخصية اليابانية، من خلال رحلته إلى اليابان سنة ١٩٠٩، قائلًا: «... إن السائح يبقى مدة إقامته عندهم غير منشرح الصدر ولا مطمئن الخاطر ويحصل له ضجر وتألم من كثرة ما يراه من سكوتهم عنه وعدم نصيحتهم له وإبدائهم له خلاف ما يبطنون»[١٧].

خلال فترة الحكم الصارم لأسرة التوكوجاوا (١٦٠٣–١٨٦٨)، كان على فئات السامواري أن تخفي ملامح بؤسها، على الرغم من مكانتها الاجتماعية المتميزة، وكان على مجموع الساكنة اليابانية التزام الصمت للحفاظ على الأمن. وربما كان ذلك أحد الأسباب التي تفسر ميزة الاستقرار الطويل الذي عاش فيه مجتمع النيبون خلال المرحلة المذكورة.

موضوع البعثات التعليمية أصل من أصول التحديث في اليابان

بحث أعفيف في أصول التحديث في اليابان، إلا أن أبرز ما غاب عنه موضوع البعثات التي أرسلها حكام التوكوجاوا إلى بعض الجامعات الغربية؛ فقد مثّل مجمل هذه البعثات مؤشرًا دل على التنافس الشديد بين نظام إداري وسياسي عتيق استنفد أغراضه التاريخية، ونخبة ظنت في أهمية العلم والتقانة الغربية وفي ضرورة تهيئة أطرها المستقبلية وتكوينها في أبرز الجامعات البريطانية على وجه الخصوص. ومع ذلك، لم يعر أعفيف الموضوع أهمية كبرى، واكتفى بإشارة عابرة إليه في بضعة أسطر (٧)[١٨]. وأقول إن بعثات نهاية عهد الإيدو آلية مهمة تمكننا من فهم دور الخارج الغربي في صناعة التغيير في اليابان، وإقحام نخبه في مسيرة التحديث التي شكلت أطروحة أعفيف السالفة.

ليس ثمة دراسات عربية خاصة بموضوع الرحلة العلمية اليابانية إلى دول الغرب الرأسمالي (الولايات المتحدة وأوروبا) بعد حملة الكومودور بيري، في حين تخصص دارسون إنكليز وألمان بالموضوع وقدموا معلومات مهمة تتعلق بالبعثات التعليمية اليابانية التي أرسلها حكام التوكوجاوا إلى لندن وباريس؛ وفي الآن نفسه، وهذا شيء مهم ولم يرد ذكره لدى أعفيف، أرسلت المقاطعات اليابانية المعارضة (تشوشو وهيزن وتوزا وساتسوما) بعثاتها التعليمية بشكل سري وعلني إلى بعض الدول الغربية، وعلى نحو جعل من الانفتاح على الجامعات الغربية وسيلة لتكوين الأطر في مختلف المناحي العلمية والسياسية والقانونية.

أصبح موضوع البعثات التعليمية والدبلوماسية إلى الخارج مؤشرًا دالًا على حجم الصراع السياسي، والتنافس في امتلاك ناصية العلم والتقانة الغربية، وحسم موضوع السيطرة على الداخل، وهندسة الفضاء الداخلي لمجتمع النيبون. لقد أراد الباكوفو إعادة إنتاج دواليب مؤسساته التي تبيَّن ضعفُها في أثناء الاحتكاك بالغرب ورموز قوته العسكرية والمعرفية. ورامتْ المقاطعات المعارضة تصفيةَ خلافاتها وتناقضاتها مع حكم التوكوجاوا، ورأت في الانفتاح على الغرب ضالتها التاريخية لرد تكاليف الكبح الذي مارسه مهندسو سياسة العزلة أمام طموحاتها القبلية. ولهذا السبب استمر إرسال بعثات الباكوفو إلى أوروبا وأميركا؛ وفي السياق نفسه، واصلت المقاطعات اليابانية إرسال وفودها الخاصة إلى الخارج، وهو ما أنتج حيوية وتدفقًا في سيرورة التحديث، ومنح المجتمع معنى حقيقيًا لحركة التغيير المجتمعي، ومدّه بالوقود اللازم للاستمرار والامتداد؛ وفي هذا الإطار يمكن قراءة مختلف مضامين البعثات اليابانية التي اتجهت نحو الخارج[١٩].

الإشكالية المركزية للبحث، عرض ومناقشة

حاول أعفيف، في بداية بحثه ونهايته، الخروج ببعض الاستنتاجات، ومنها قوله إن «المجتمع الياباني تميز عن **بعض دول (الشرق)** بعدم خضوعه **لديانة ذات تشريعات صارمة تقيّد حرية الإنسان وتفرض عليه سلوكًا معينًا**. فجوهر ديانة الشنتو هو استرضاء قوى الطبيعة لتحقيق رفاهية الإنسان، بينما اتخذت البوذية في اليابان صيغة هدفها تهدئة أرواح الموتى ومنعها من العودة ثانية إلى دنيا الآلام. فهاتان الديانتان اللتان تعايشتا في المجتمع الياباني على نحو مثير، لم تشكل أي واحدة منهما معايير تقاس بها أو تخضع لها القرارات السياسية وغيرها. فعندما أقدم زعماء الإصلاح على الأخذ بمبادئ الحضارة الغربية **لم يجدوا أمامهم كهانًا أو رجال دين يمكن أن يقفوا في وجههم أو يعترضوا على قراراتهم**. بل على النقيض من ذلك، وجدوا في ديانة الشنتو عونًا على تحقيق دولة مركزية يرأسها إمبراطور يحظى بتقديس في تلك الديانة»[٢٠]. وهو ما ذهب إليه علي المجذوبي حين قال: «لم تكن الديانات السائدة باليابان، كالشنتوية والكنفوشية والبوذية عقبة أمام التفتح على الغرب والأخذ بأسباب قوته»[٢١].

يُثني أعفيف على البوذية والشنتوية ودورهما في بناء دولة مركزية يقودها إمبراطور تمتع بالقداسة وحظي بالاحترام. ويضعنا، بقوله هذا، أمام معادلة غير متكافئة الجوانب؛ فهل شكلت الشنتوية والبوذية ديانتين منحتا حرية الفعل التحديثي في اليابان؟ وهل تكفي النصوص في صناعة التغيير وتحقيق التنمية؟

أتساءل: أين كانت الشنتوية والبوذية بعد حملة بيري على سواحل اليابان؟ فقد عرف بلد النيهون، بعد سنة ١٨٥٣، موجة عنف شديدة تجاه مظاهر التحديث الغربي، وقام الرونين بعمليات اغتيال كثيرة ضد الأجانب والمتعاطفين معهم، وكاد فوكوزوا يوكيتشي أن يفقد حياته بسبب موقفه الداعي إلى الانفتاح على الحضارة الغربية. وأود القول إن النصوص الشنتوية والكوجيكي وأساطير الخَلق اليابانية لا تحمل في ذاتها عناصر القوة والنجاعة التحديثية، لكن النخب التي أرجعت السلطة إلى الإمبراطور وأسست يابان الميجي، واطّلعت على حقيقة القوة الغربية، وهندست لمجمل عناصر الانقلاب الإداري والسياسي والمجتمعي، وظفت بذكاء متميز النصوص القديمة في بناء مسيرة تنموية جديدة.

لا ترتبط القضية بطبيعة النصوص بقدر ما تتعلق بذهنية (بالمفهوم الفيبيري) تمتلك قدرًا من الوعي والنضج في تفعيل رموزها على أرض الواقع. من جانب آخر، ما الدليل على أن نصوص «الشرق» تقيد حرية الإنسان وتفرض عليه سلوكًا معينًا؟ وإذا كان ذلك صحيحًا، فما سر شيوع المعرفة والعلم العربيين وانخراط أمم الأرض في التكلم بلغة العالم آنئذ (اللغة العربية)، في زمن كانت دوامة العنف السياسي والعسكري متفشية في اليابان وأوروبا؟ ألم يكن ابن رشد وابن خلدون والفارابي وابن جني وسيبويه والخوارزمي وابن النفيس وابن البناء وغيرهم نتيجة طبيعية لهذه النصوص التي وجهت الفكر الإنساني إلى التأمل والتفكر والإنتاج المعرفي؟

يمكن لذهنية الابتكار أن تجعل من الأساطير والمعتقدات عنصرًا إيجابيًا في صناعة التنمية والتغيير الدنيوي، وبالقدر نفسه لن يتأتى لنصوصٍ الوحي إحداث التغيير من دون نخبة مفكرة تتقن قراءة الواقع ومحيطه العام، وتدفع في اتجاه التنزيل الحكيم لمقاصده وغاياته الوجودية الكبرى.

لقد أظهر ماكس فيبر في كتابه **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية** أثرَ الإصلاح البروتستانتي في حركية الاقتصاد الرأسمالي، مبرزًا، من خلال عمله، قدرة الأفراد على الفعل والحركة. وقال إن الإصلاح الديني «لم يكن يعني إلغاء سيطرة الكنيسة.. بل استبدالها بشكل جديد من هيمنة»[٢٢] بروتستانتية تؤمن بالعقلانية الاقتصادية وبروح الإنتاج المقاولاتي والبحث عن الربح. وقال إن هذا التباين «يجب عدم البحث عنه في الظروف الخارجية المؤقتة التاريخية والسياسية، ولكن في الطابع الجوهري والدائم للمعتقدات الدينية»[٢٣].

وبحسب فيبر، إن كل أشكال السلطة والهيمنة هي «توليفات وخلطات وتكييفات أو تعديلات لثلاثة أنماط خالصة هي الزعامة الملهمة – الكارزمية– والتقليدية والقانونية، فالهيمنة التقليدية ترتكز على الاعتقاد في شرعية ما قد وجد دائمًا والهيمنة القانونية تؤسس على اعتقاد في شرعية القوانين الموضوعية»[٢٤].

يمكن القول إن عقلية اقتصاد الجهد بدأت مع عهد الفيودالية اليابانية، عندما نجح هيديوشي في الحد من نزعة الاقتتال الداخلي، وأسس، بصرامة السلاح والعنف، بداية الدولة المركزية التي لم ينسَها له اليابانيون على امتداد تاريخهم الطويل. وترسخت هذه القيمة الأخلاقية في مجتمع التوكوجاوا، ونجح عهد الميجي في استثمار مقتضياتها وفي بناء مقاسات تحديث مجتمع النيبون على منوالها وشاكلتها. ولعل ذلك ما أوجد حالة من الاستمرارية وحقق قيمة التراكم الإيجابي والعمق التاريخي الاستراتيجي في عملية التحول من نظام فيودالي تقليدي إلى بداية تشكُّل نزعة رأسمالية يابانية متميزة.

لكل مجتمع سلفيته، فكما للأوروبيين مرجعياتهم الفلسفية والدينية (بدءًا بالفلسفة اليونانية والتعاليم المسيحية والأخلاق البروتستانتية والاتجاهات الفلسفية من وجودية وماركسية...) التي يعدونها مرحلة مهمة في بناء التراكم، فإن لليابانيين هويتهم وأساطيرهم وأخلاقهم التي تحقق لهم التجانس وتمنحهم عناصر النجاح الدنيوي؛ فلِمَ يُنكَر على المسلمين التمسك بماضيهم وبدينهم، وتأسيس التنمية بمقتضى التوجيهات والمقاصد الشرعية التي تنضبط بها حياتهم وسلوكهم؟

خاتمة

على الرغم من هذه الملاحظات، أضاف أعفيف إلى الخزانة المغربية والعربية بحثًا جديرًا بالقراءة والتمحيص، وبذل جهدًا معرفيًا ذا قيمة كبيرة، ونجح في تنظيم المعلومات وتفكيكها إلى وحدات كانت تُختم في الغالب بخلاصات تعين القارئ على الفهم والربط بين محاور الكتاب. بناء عليه، تشكل أطروحته قيمة مضافة للدراسات العربية الخاصة بالموضوع الياباني.

وإذا كنا قد وجهنا بعض الانتقادات والملاحظات إلى محتويات الكتاب واستنتاجاته، فإن ذلك لا يلغي قيمة الكتاب ورصانته العلمية، ونظن أن المناقشة المتخصصة قمينة بأن تعطي الكتاب مكانة معتبَرة ضمن الدراسات الخاصة بالموضوع الياباني.

الهوامش:

(١) محمد أعفيف، **أصول التحديث في اليابان (١٥٦٨-١٨٦٨)**، سلسلة أطروحات الدكتوراه؛ ٨٧ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٠)، ص ١٧.

(2) Jacques Le Goff, *L'Europe est-elle née au Moyen âge?*, faire l'Europe (Paris: Ed. du Seuil, 2003).

(3) Pierre Renouvin, *La Question d'Extrême-Orient, 1840-1940* (Paris: Hachette, 1946), p. 56.

(4) Kohachiro Takahashi, «La Place de la révolution Meiji dans l'histoire agraire du Japon,» dans: Maurice Dobb et Paul-M. Sweezy, *Du féodalisme au capitalisme: Problèmes de la transition*, avec des contributions de Christopher Hill [et al.]; traductions de l'anglais de Florence Gauthier et Françoise Murray, petite collection Maspero; 196-197, 2 vols. (Paris: F. Maspero, 1977), vol. 2.

(5) Paul Akamatsu, *Meiji-1868: Révolution et contre-révolution au Japon* (Paris: Calmann-Lévy, 1968).

(٦) آتسوشي كادوواكي، «الشباب اليابانيون،» في: **خفايا المعجزة اليابانية**، ترجمة عبد الله مكي القروص (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ١٩٩٩)، ص ٧٠.

(٧) خالص جلبي، «ماكس فيبر وروح الرأسمالية،» الاتحاد، ٥/٤/٢٠٠٦، على الموقع الإلكتروني: <http://www.alittihad.ae/wajhatdetails.php?id=19245>.

(8) Renouvin, p. 17.

(٩) إسماعيل ياغي، **تاريخ شرق آسيا الحديث** (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٩٩٤)، ص ١٤١.

(١٠) إدوين رايشاور، **اليابانيون**، ترجمة ليلى الجبالي؛ مراجعة شوقي جلال، عالم المعرفة؛ ١٣٦ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٩)، ص ١٨٦.

(١١) ياسومازا كورودا، التحديث والاغتراب في اليابان، مجلة **المستقبل العربي**، عدد ٦٩، سنة ١٩٨٤ من ص: ١٢٢ إلى ص: ١٣٧، ص: ١٣٠.

(12) O-Young Lee, *Smaller is better. Miniaturisation et productivité japonaises*, trad. de l'anglais par Jean Martel (Paris: Masson, 1988), p.93.

(13) Keiko Yamanaka, *Le Japon au double visage*, documents actualité (Paris: Denoël, 1997).

(14) Ibid., p. 19.

(15) Ibid., p. 19.

(١٦) باتريك سميث، **اليابان: رؤية جديدة**، ترجمة سعد زهران، عالم المعرفة؛ ٢٦٨ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠١)، ص ٦١.

(١٧) محمد علي باشا، **الرحلة اليابانية، ١٩٠٩**، حررها وقدمها علي أحمد كنعان، ارتياد الآفاق (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر؛ أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤)، ص ١٠٩.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٦٩٦.

(١٩) يحي بولحية، البعثات التعليمية المغربية (١٨٤٤-١٩١٢م) والبعثات التعليمية اليابانية (١٨٥٣-١٩٤٥م) تباين المقدمات واختلاف النتائج، كتاب سيصدر قريبا عن المركز العربي للدراسات وتحليل السياسات، بيروت/ الدوحة، قطر.

(٢٠) أعفيف، ص ٢١-٢٢، كرر أعفيف ذلك في ص٥٣٨.

(٢١) علي المحجوبي، **النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر: لماذا فشلت بمصر وتونس ونجحت باليابان** (تونس: سراس للنشر، ١٩٩٩)، ص ١٩٨.

(22) Max Weber, «L'éthique protestante et l'esprit du capitalisme,» (document produit en version numérique par Jean-Marie Tremblay), p. 18, sur le Web: <http://bibliotheque.uqac.uquebec.ca/index.htm>.

(23) Ibid., p. 20.

(٢٤) ميشيل تومبسون [وآخرون]، **نظرية الثقافة**، ترجمة علي سيد الصاوي؛ مراجعة الفاروق زكي يونس، عالم المعرفة؛ ٢٢٣ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٧)، ص ٢٧٢.